ليلة العيد

أقول لولدي:

- هيا إلى السوق لشراء قميص جديد لك.

ويرد على الفور:

- سأنزل قبلك، سأشتري رقائق بطاطا من المحل المقابل.

يهبط على الدرج قبلي، يسبقني، زوجتي تودعني في الباب، وهي تقول:

- أرجوك، انتبه، لا تسرع، أعرفك تقود بسرعة، السوق والشوارع كلها مزدحمة، الناس في اليوم الأخير من رمضان، وكل منهم مستعجل، ولا تنس أمجد، أمسك يده، تعرف طيشه.

أخرج من مدخل البناء، ولدي أمجد يعدو إلى الرصيف المقابل، وإذا سيارة مسرعة، تكاد تدوسه، وتطير به، أصيح، جسدي كله ينتفض، أمجد أصفر الوجه، يرتعد، صاحب المحل المقابل يخرج، والسيارة غابت عن الأنظار، يبادرني جارنا صاحب المحل بقوله وهو يمسح بيده على رأس أمجد:

- الحمد لله، ما حصل أي شيء.

أهم بالعودة إلى البيت، أنظر في عيني ولدي، أحس أنه سيبكي، أمسك يده، وأمضي به إلى السيارة، وأنا أقول له:

ـ كم مرة أوصيتك يا ولدي بالانتباه قبل عبور الشارع، في ليلة العيد كنت ستنغص حياتنا.

وأمضي، أمجد إلى جواري، أحس به ما يزال مأخوذاً بتأثير الصدمة، أقول له:

ـ ضع يدك هنا على المقود إلى جوار يدي، لتتعلم قيادة السيارة، هيا.

في مثل هذا اليوم رأيت الموت، خرجت مع أبي لشراء حذاء جديد، في ليلة العيد.

يده الكبيرة تمسك بيدي، أحس بها كبيرة، كبيرة بحجم العالم، وأنا أسير إلى جانبه، كم أنا قصير، وكم هو طويل، لا يكاد رأسي يصل إلى جيب معطفه البني الطويل، حتى جيبه كبير، أحس به كبيراً جداً، والنقود فيه توسوس، نقود كثيرة، يستطيع أن يشتري بها ما يشاء،يحث الخطا، ومعطفه الطويل يخفق، حتى الحذاء أحس به كبيراً، وأنا أركض إلى جانبه ركضاً، أخشى أن أفقده، ولكن أنا مطمئن إلى أني لن أفقده، فهو يمسك بيدي، ونحن نعدو فوق بلاط الزقاق المفلطح، المتألق بماء المطر، أبي وعدني بشراء حذاء جديد، أنا أعرف أنه سيشتري لي حذاء وأشياء أخرى، سيشتري تفاحاً من غير شك، وسيشتري لنا بقلاوة.

نخرج من الزقاق الضيق إلى الساحة الواسعة، ليس ثمة ساحة، كانت بالأمس ساحة، وهي اليوم مملوءة بالعربات والبسطات، وقد فرشت فوقها الألبسة الجديدة، وارتفعت صناديق التفاح والبرتقال مثل أهرامات شامخة، واكتظ الناس، وعلت أبواق السيارات، في الطرف الأيمن من الساحة يرفرف العلم عالياً فوق مخفر الشرطة، وأمامه يقف من غير شك شرطي، ولكن في الزحام لا يمكن أن أراه، وفي الطرف الأيسر تنهض شامخة مئذنة المسجد، والمسجد نفسه لا يكاد يظهر، في زحمة الباعة، ووراء الساحة تنهض المقبرة على تلة غير عالية، حيث تقف شاهدات القبور البيضاء متراصة في ازدحام هادئ، اليوم هو التاسع والعشرون من شهر رمضان، والوقت بعيد العصر، وغداً قد يكون العيد، ثمة حاجات كثيرة لا بد من شرائها.

أمام عربة مملوءة بأحذية مختلفة المقاييس والحجوم، يقف أبي، يسألني:

ـ تريد البني أم الأسود؟.

وعلى الفور أجيبه:

ـ الأسود.

البائع يضعه في كيس ورقي، يناولني إياه، أقول لأبي:

ـ أريده في صندوق، مثل الحذاء الذي اشتريته لي العام الماضي.

ـ العام الماضي اشتريناه من المحل في مركز المدينة، اشتريناه قبل العيد بثلاثة أيام، كان عندنا وقت، اليوم ما عندنا وقت، قد يكون غداً العيد، بائع العربة والبسطة ما عنده صندوق، يا ولدي.

أحمله وأمضي مكتئباً، الصندوق أهم عندي من الحذاء.

أقول لأبي:

ـ هل أنتعل الحذاء الجديد، وأرمي القديم هنا في الساحة؟

ـ ستنتعله غداً صباحاً، إذا انتعلته الآن ضاعت بهجة العيد.

أنا أعرف، أبي يريد أن أحتفظ بالقديم، سأنتعل الجديد في أيام العيد الثلاثة، ثم سأرجع إلى الحذاء القديم، سيقول لي: «خبئ الحذاء الجديد لعيد الأضحى، بعد شهرين يأتي عيد الأضحى، ليبقى الجديد جديداً».

ويتجه أبي نحو طرف الساحة، أدرك أنه سيشتري لي الموز، يعرفني أحب الموز، وهناك أمام باب المسجد عربة صفت عليها عثاكيل الموز الأصفر الشهي كأنها الثريات.

لدى وصولنا إلى العربة يطل من باب المسجد نعش محمول على أكتاف رجال ثلاثة أو أربعة، يشدني أبي من يدي، يقول لي:

ـ الحق بي، لا تضيعني.

يسرع بقامته المديدة، يتقدم من النعش، يحشر كتفه تحت مقدمته، يحمله، يكاد يحمله وحده، وأنا أجري في إثره، ينضم رجلان آخران يشاركان في حمل النعش، المقبرة مترامية وراء الساحة، تطل عليها من عل، شاهدات القبور تنهض متزاحمة كتزاحم الباعة والمشترين في الساحة، كأنني أرى المقبرة أول مرة، أبي يتركني، ينساني، وهو ما يزال يحمل النعش من المقدمة على كتفه، بضعة رجال شاركوا في حمل النعش بضع خطوات ثم تركوه لرجال آخرين، أبي وحده لم يترك النعش، ظل يحمله، نسيني، وأنا أجري في إثر الجنازة، مثل قطة صغيرة.

الشمس اصفرَّت، غابت وراء غيمة داكنة، لون وردي انتشر في السماء، بضع قطرات من المطر بلَّلت وجهي، انتصب فوقي قوس قزح بألوانه الزاهية، وقفت على قبر عال، وددت لو انتعلت حذائي الجديد، ورائي الساحة تشغى بالضجيج والصراخ والحركة، أمامي بضعة رجال أقل من عشرة قعدوا ملتفين حول حفرة أنزلوا فيها الميت، أحدهم حمل التابوت الخشبي الفارغ ومشى به، تأملت فراغه، تناهت إلى سمعي أصوات الرجال وهم يقرؤون سورة يس، صوت أبي يصلني متميزاً، أبي يحفظها عن ظهر قلب، هو يتلوها كل صباح قبل خروجه من البيت.

ليست المرة الأولى التي أرى فيها جنازة، عشرات المرات رأيت جنازة خارجة من مسجد الساحة، طريقي إلى المدرسة

يمر بالساحة والمخفر والمسجد والمقبرة، ولكن هذه أول مرة أرى جنازة لا يسير فيها سوى أربعة أو خمسة، ولا أرى فيها السيارات وهي تملأ الساحة أمام المسجد وقد علتها أكاليل الزهر، وهذه أول مرة أرى فيها جنازة عشية العيد.

بائسون أولاد الميت، لن يهنؤوا بالعيد، وهو لم يعش إلى يوم العيد، أخشى أن يموت أبي ليلة العيد، أخشى أن أموت أنا أيضاً صباح يوم العيد، أنا أخشى أن يموت أبي صباح يوم الامتحان، صديقي وسيم ماتت أمه العام الماضي صباح يوم الامتحان.

أبي ينظر إليَّ، كأنه مطمئن إلى وجودي، أو لعله غير راض عن وقوفي بعيداً، لم أفهم سر نظرته، كأنه يتأملني، هل يخشى أن أموت؟ هل يخشى أن يموت؟

الرجال يصافح بعضهم بعضاً، أبي يرجع إليَّ، يمسك بيدي، ننحدر أنا وهو من المقبرة إلى الساحة، أسأله:

- هل تعرف الميت؟

- لا يا ولدي.

- ولماذا تعبت إذن في حمله؟

- من أجل الثواب.

- ولماذا لا يحمله أولاده؟

- ليس له سوى ولد وحيد، ماذا يستطيع أن يفعل وحده؟.

أنا أيضاً وحيد أبي، ليس عنده ولد غيري، عندما نظر إلي، هل كان يخشى ألا يساعدني أحد في حمل نعشه؟ هل أسرع إلى حمل النعش لأنه يعرف أن الميت مثله ليس له سوى ولد واحد؟.

أسأل أبي:

ـ لماذا مات ليلة العيد؟

ـ انتهى عمره، وافاه الأجل.

ـ لماذا لم يحملوه إلى المستشفى؟ ألا يمكن أن يسعفه الطبيب؟

ـ حملوه إلى المستشفى وأسعفه الطبيب، ولكن انتهى عمره، الأعمار مقدرة يا ولدي، وإذا جاء الأجل فلابد، ألا تذكر قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

ـ ولكن ولده سيحزن، وسيحزن أحفاده، فقد حرمهم سعادة العيد.

ـ انس الآن هذا، وتعال لنشتري السوس.

أحس بالظمأ، أسأل أبي:

ـ كم بقي للمغرب؟

ينظر إلى ساعة يده، ثم يجيب:

ـ نصف ساعة.

في الطرف الآخر من الساحة يقف بائع السوس، وقد لف حول وسطه مئزراً أحمر، وحمل على ظهره قربة السوس السوداء، ينحني إلى الأمام ليصب من صنبور القربة السوس الأسود الشهي في كيس من البلاستيك الشفاف، والرغوة تعلوه، يتحلَّب ريقي، أكاد أحس طعمه في عروقي وأنا الصائم.

ونمضي باتجاه البيت، أحمل حذائي الجديد، أبي يحمل كيس السوس، عند مدخل الزقاق أقول لأبي:

ـ نسيت الموز.

نرجع إلى الساحة، أبي يشتري الموز والتفاح والبرتقال، يشتري البقلاوة، ثم نمضي نحو البيت.

يسألني أبي:

ـ هل أنت مسرور؟

أصمت، لا أعرف ماذا أقول؟ صورة الجنازة وبضعة رجال يحملونها ولا أحد يمشي وراءها تؤلمني.

أسأل أبي:

ـ هل هو فقير؟

ـ من؟

ـ الميت.

ـ ليس الفقر أو الغنى مشكلة يا ولدي، المهم هو عمل الإنسان.

ـ ولماذا لم يمش أحد في جنازته؟

ـ إن مشى الناس في جنازته أو لم يمشوا، رحمة الله أوسع وأكبر.

ويصمت أبي قليلاً، ثم يسألني:

ـ انس الموضوع، هل تريد شيئاً آخر؟ هل أشتري لك قميصاً ؟

ـ لا، قميصي ما يزال جديداً.

في البيت أسرع إلى أمي أسألها:

ـ لماذا أنا وحيد يا أمي؟ أريد أخاً.

وكبرت، ودخلت المدرسة، وتوظفت، وتزوجت، وإلى اليوم ما أزال أذكر الجنازة التي رأيتها ليلة العيد يوم كنت طفلاً بعمر ولدي أمجد.

وأنعطف بالسيارة، فيلتفت إليَّ ولدي أمجد ليسألني:

ـ إلى أين سنذهب يا أبي؟ ألن نذهب إلى مركز المدينة لشراء قميص؟

أجيبه:

ـ بل سنذهب إلى الحي القديم الذي كنت أسكن فيه، لترى الساحة والازدحام.

يسألني أمجد:

ـ الساحة التي زرناها في مثل هذا اليوم من العام الماضي، واشتريت لي منها حذائي الأسود؟

ـ نعم.

ـ وهل سنمر بالدار القديمة التي كنت تسكن فيها، ثم نزور المقبرة ونقرأ الفاتحة أمام قبر جدي؟

ـ نعم.

يصمت قليلاً، ثم يسألني:

ـ كم كان عمرك يا أبي يوم مات جدي؟

ـ أكبر منك قليلاً يا ولدي.

ـ حدثتني العام الماضي أنك كنت تخاف أن يموت جدي صباح يوم العيد.

ـ نعم يا ولدي.

ـ وهل مات صباح يوم العيد؟

ـ مات بعد العيد بأربعة أيام أو خمسة، بعد أن فرحت بالعيد وزرت معه الأهل والأقارب، وبعد أن لبست الثياب الجديدة ولعبت مع الأولاد.

ـ وهل ستموت أنت يا أبي؟

ـ بالطبع، يا ولدي.

ـ لكن أرجو ألا تموت في العيد، أرجو ألا تموت حتى أكبر أنا وأصبح رجلاً مثلك.